



معهد الدراسات الإسلامية

العنوان: توكل

المؤلف: ليونارد لويسون

المصدر: موسوعة الإسلام (الطبعة الثانية)، المجلد X، ٢٠٠٠، الصفحات ٣٧٦-٨، حرره ب. بيارمان، ت. بيبانكوس، سي. ي. بوسورث، ي. فان دونزيل و و. ب. هنريتشز؛ (اي. ج. برل).

تم الحصول على حقوق النشر من الناشر المذكور.

إن استخدام المواد الموجودة على موقع معهد الدراسات الإسلامية يشير إلى القبول بشروط معهد الدراسات الإسلامية لاستخدام هذه المواد. كل نسخة من المقال يجب أن تحتوي على نفس نص حقوق النشر التي تظهر على الشاشة أو التي تظهر في الملف الذي يتم تحميله من الموقع. بالنسبة للأعمال المنشورة فإنه من الأفضل التقدم بطلب الإذن من المؤلف الأصلي والناشر لاستخدام (أو إعادة استخدام) المعلومات ودائماً ذكر أسماء المؤلفين ومصادر المعلومات.

توكل

الدكتور ليونارد لويسون

هذه نسخة منقحة من مقال نشر بالأصل في موسوعة الإسلام (الطبعة الثانية)، المجلد X، ٢٠٠٠، الصفحات ٣٧٦-٨، حرره ب. بيارمان، ت. بيبانكوس، سي. ي. بوسورث، ي. فان دونزيل و. ب. هنريتشز؛ (اي. ج. برل).

توكل، الإسم الفعلي أو مصدر لفعل 'وَكَلَّ' "أن تعهد [لشخص]، أو يكون لديك ثقة [بشخص ما]"، وهو مفهوم في المصطلحات الدينية الإسلامية، وخاصة لدى الصوفية، يدل على الإعتماد على الله.

يشير تور أندري إلى أن فعل 'توكل' يعني "الثقة بشخص بنفس الطريقة التي أثق بها 'بوكيلي'"، أي الشخص الذي اخترته ليكون نائباً أو رجل أعمال، ليقوم بعمله ويقرر ويتصرف بالنيابة عني. وهنا يعتمد تور أندري إلى حد كبير على تحليل الغزالي الإشتقائي لكلمة 'توكل' في كتابه 'الإحياء'، القاهرة ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م، الجزء الرابع، ٢٢٣، حيث أشار إلى أنه مشتق من 'الوكالة'، التوكيل أو التفويض، "ولذلك يقول المرء أنه 'وكل' أحدهم بشؤونه لشخص آخر، أي شخص يعتمد عليه. الشخص الذي يُعهد إليه شؤون أحدهم يدعى 'الوكيل'. أما فيما يتعلق بالشخص الذي يثق به المرء، فإن المرء يقول بأنه يتخلى عن نفسه لوكيله. وهكذا يعهد المرء بروحه لوكيله ويعتمد عليه بقوة... ولذلك فإن التوكل يعرب عن الثقة القلبية 'بالوكيل الواحد'".

ظهر في الكتابات الصوفية القديمة مفهوم "الدين كتوكل"، حيث أن جميع أعمال الورع والتقوى، وجوهر الشعور "بالإعتماد المطلق"، تمثل بذاتها الدين كما لاحظ شليزماخر. إن الثقة بالله في القرآن والحديث لشيء أساسي. يذكر التوكل في القرآن حوالي ٦٠ مرة، مع بعض العبر النموذجية مثل، "وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" القرآن (٢٣/٥). ونجد في الحديث، مثلاً، "لو أنتم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصاً وتروح بطاناً" (الإحياء، الجزء الرابع، ٢١١).

في التفسيرات الباكورة للقرآن الكريم، وفي النسخة التي نقحها السلمي 'للتفسير' المنسوب للإمام جعفر الصادق، فإن وصف الإمام الصادق للتضاريس الداخلية للقلب قد استبق المفاهيم الصوفية عن 'التوكل' على أنه موقف روحي داخلي وليس ممارسة خارجية (تحرير ب. نوية، تمازج الكلية الشرقية في جامعة القديس يوسف (MUSJ)، الجزء الثالث والأربعون/ ٤ [١٩٦٧]، ١٨١-٢٣٠)؛ وقد ركزت النقاشات الصوفية الباكورة في كثير من الأحيان على تفسير الآيات القرآنية لبرهان صحة وتوافق التوكل مع الحياة الروحية، فعلى سبيل المثال، ذكر سهل التستاري (المتوفي عام ٢٨٣ هـ / ٨٩٦ م) في الجزء الحادي عشر، ٦، "طالما أن للمتوكل 'أسباباً' ثانوية، فإنه مدع كاذب".

ومنذ أوائل العصور الإسلامية وما بعدها، جرت سجلات حامية عن فضائل كل من "كسب العيش" (كسب، تكسب، اكتساب) مقابل 'التوكل' على الله (يوجد ملخص لهذا في كتاب أبو طالب المكي، قوت القلوب، بيروت، مجلدين، ٥-٦). ومثل المصطلحات المختصة الأخرى في الفكر الإسلامي، فقد قاسمت هذه المناقشات ظاهرة المتقابلات، حيث نوقشت الأفكار من حيث الأزواج اللغوية المتضادة والتي تمثل مواقف فلسفية صوفية أو صوفية ثيوصوفية متناقضة، بحيث أن التوكل/ الكسب غالباً ما نوقشت مع الجبر/الإختيار، الحتمية/ الإرادة الحرة (انظر مثلاً حكاية الأسد ووحوش المطاردة في كتاب الرومي، 'المثنوي'، حرره وترجمه نيكلسون، اي، و. ٩٠٠-١٢٠٠، ١٢٦٣-١٣٧١).

كانت المدرسة العراقية في بغداد، من أتباع الجنيد (توفي عام ٢٩٨ هـ / ٩١٠ م)، الذي اعتمد للحصول على الرزق على العناية الإلهية فقط، وقد أصبح الداعي الرئيسي لمذهب 'التوكل' في الإسلام المبكر، في حين اتبعت المدرسة الخراسانية في نيسابور، تعاليم أبو يزيد طيفور البسطامي (توفي عام ٢٦٠ هـ / ٨٧٤ م)، حيث قام مذهبه على 'الملازمة'، ودعوا إلى فضائل 'الكسب'. ولكن كانت هذه اتجاهات عامة أكثر من كونها انقسامات واضحة، حيث نجد بعض الأفراد الذين لا يمكن ببساطة تصنيفهم وفق هذا التصنيف؛ ولذلك فإنه رغم أن أبو تراب نخشابي (توفي عام ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م)، كان عضواً في المدرسة الخراسانية، إلا أنه اشتهر أيضاً 'بتوكله' (جامع، نفحات الأنس، طهران ١٩٩١، ٤٩). أما أولئك الذين يخشون من الإعتماد المفرط على 'التوكل'، مثل رويم البغدادي (توفي عام ٢٩٨ هـ / ٣١٠ م)، فإنهم أكدوا على السنة النبوية في فضائل 'الكسب'، كما وكثرت النقاشات حول حدود 'التوكل' في القرون ٣-٤ هـ / ١٠-١٠ م. ووفقاً لكتاب الهجويري، 'كشف المحجوب'، ترجمه نيكلسون، لايدن ولندن عام ١٩١١، ١٤٦، ورد أن أبو حمزة الخراساني، وهو داعية مبكر

للتوكل، كان قد سقط في حفرة، ورفض دعوة مجموعة من المسافرين لإنقاذه لئلا يعتقد أنه قد لجأ لأحد غير الله (راجع المزيد في كتاب نيكولسون، الصوفيون في الإسلام، لندن ١٩١٤، ٤١ وما يليها). ربما كان أكثر داعية معروف للتوكل داخل المدرسة البغدادية هو إبراهيم الخواص (توفي عام ٢٩٠ هـ/ ٩٠٣ م)، والذي حمل فكرة التخلي عن النفس إلى الله إلى أبعد حد؛ وقد علق الجنيد عند وفاته: "لقد زاد سعة مفهوم التوكل على سطح الأرض" (عبد الله الأنصاري الهراوي، طبقات الصوفية، طهران ١٣٦٢/١٩٨٣، ٣٤٨).

لكن الغالبية من الصوفية الآن على وعي متزايد بدقة مذهب التوكل، ويميلون إلى اعتبار التفسير الحرفي له على أنه نوع من السذاجة. وهكذا وجد الحلاج أنه من غير المحتمل أن يكون الخواص قد بنى كامل مذهبه الصوفي على 'التوكل' وأن يكون قد اعتبره "عقيدة حقيقية" (الهجويري، 'الكشف'، ٢٩٠). وأثيرت نقطة دقيقة في مثل هذه الإنتقادات وغيرها: إن صدق إخلاص المرء مشوب بإدراكه لإعتماده وتوكله على نفسه، ويجب أن يكون نكران الذات ('الفناء')، هو الإدراك الحقيقي 'للتوكل'. ومن الواضح أن معظم الصوفيين المتبعين للبغدادي اعترفوا بالصلة الخفية بين الإثنين.

لم يمض وقت طويل قبل أن يبدأ الكثير من الصوفيين بإنتقاد المذهب الكلاسيكي 'للتوكل' كالرغبة في التطور الروحي، وخصوصاً مذهب الخراسانيين الذين كان لديهم قليل من الإعتبار لهذا المفهوم على أية حال. فقد اعتبره أبو بكر الواسطي (توفي عام ٣٢٠ هـ/ ٩٣١ م)، مع الزهد والرضا والتسليم كواحد من المحطات الأربع التي يعتبرها تليق بالحكمة الحقيقية ('المعرفة')، أي أنها كانت مناسبة فقط للمشاة الكسالى على طريق الصوفية.

ولكن كان الموقف المهيمن الذي كان سائداً بين الصوفيين أن مايبهم حقاً هو الحقيقة الداخلية للتوكل وليس أدواته الخارجية. كرس الشاعر الصوفي العظيم بابا طاهر (عاش في القرن الخامس هجري/ الحادي عشر الميلادي) الفصل ٢٦ من أقواله المأثورة ('الكلمات القصار'، حرره ج. مشكور، طهران ١٣٥٤/ ١٩٧٥) لموضوع الثقة، وقد تحدث عن الفكرة بشكل متناقض: 'توكل نفي التوكل'، "الثقة بالله كنفي للثقة بالله"، وأوضح أحد المعلقين بأن "الشخص الذي يثق بالله حقاً ينبغي أي ارتباط له 'بالتوكل' بمعنى أنه ليس لديه ثقة بـ ولا يولي الإهتمام لـ، ثقته". وهنا، يقترح الشاعر من مفهوم الواسطي بأن 'التوكل' لا يليق بالحكمة. وقد أدرك أيضاً بأن 'التوكل' و'التوحيد' مترابطان ومتشركان في تحقيق السلام الداخلي الكامل، كما أكد الغزالي في 'الإحياء'، الجزء الرابع، ٢١٠ (راجع أ. شيمل، 'الأبعاد الصوفية للإسلام'، تشابل هيل، ن. سي. ٩٧٥، ١١٩).

في حين كانت هناك مناقشات حول أصالة ودرجات 'التوكل'، إلا أن الصوفيين التقليديين يتفقون عموماً على أن هناك خاصية أخلاقية تنطوي على التخلي عن المشيئة الحرة والإرادة عند النظر لله بأنه المصدر الأعلى للسببية، والتعاريف التي ذكرها عبد الله الأنصاري، في كتاب 'الطبقات'، ٣٣٨؛ تظهر بأن قوة وإرادة الإنسان تُنفى لصالح العناية والقدرة الإلهية المطلقة. وهكذا اعتبر 'التوكل' كأحد أركان الإيمان، ووفقاً للغزالي، الذي كرس أكثر من ٤٠ صفحة في كتابه 'الإحياء' لموضوع 'التوحيد والتوكل'، والذي كان قد وضع أربع درجات للتوحيد الذي عرف من خلال 'علم المكاشفة'، فإن التوكل هو علم الكشف الصوفي.

كما وضع الكاتب محمود شابستاري من القرن الثامن هجري/ الرابع عشر ميلادي، مخططاً مماثلاً من أربع درجات كان 'التوكل' أحدها، في أطروحته الفلسفية الفارسية القصيرة 'حق اليقين' (طهران ١٣٦٥/ ١٩٨٦، ٣١٠-١١). تذكر كل الكتب الصوفية تقريباً 'مقامات' بترتيبات مختلفة، ولكنها غالباً ما تضع 'التوكل' بين المراحل الأولى للطريقة الصوفية، يسبقه 'الزهد' (انظر على سبيل المثال الهجويري، 'كشف'، ١٨١). بين الغزالي ثلاث درجات من الثقة: (١) ثقة العميل بوكيله القانوني، (٢) نوع أقوى، مثل الإعتماد المطلق للرضيع على أمه، والذي هو من اللاوعي ويفتقر إلى أي معرفة عميقة بقدراتها؛ و (٣)، وهي أعلى درجة، عندما يثق المحب بالله "وكأنه جثة في يدي غاسل الموتى"، لكنه مع ذلك يدرك أن روحه تنتقل بالإرادة الأبدية للقدرة الإلهية. أثبت هذا التصنيف الثلاثي 'للتوكل'، في الواقع، شعبية كبيرة في المواقف الصوفية في وقت لاحق، مثل ذلك عند القديس تشيشتي العظيم نظام الدين أولياء (المتوفي عام ٧٢٥ هـ/ ١٣٢٥ م).

المراجع

لمزيد من المعلومات عن المراجع، يرجى الإطلاع على النسخة الإنكليزية.